

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَوْسِمَةُ الْبَيْتِ الْمَكِيِّ لِلْفِكَرِ الْإِسْلَامِيِّ



المؤتمر العام الخامس عشر لآكارمة آل البيت الملكية

١٨-٢٠ شوال ١٤٣١ هـ الموافق ٢٧-٢٩ أيلول / سبتمبر ٢٠١٠ م

الْبَيْتَةُ فِي إِسْلَامٍ

أهمية البيئة في عالمنا
اليوم

الأستاذ الدكتور الهادي البكوش

أهمية البيئة في عالمنا اليوم

(1) كنت مباشراً لمسؤولية في الحكم في تونس سنة 1987م، لما زارني سفير ألمانيا الاتحادية وأعلمني أنّ بلاده تنوي التراجع في قرض منحتة لنا لبناء سدّ في شمال البلاد لأنّ هذا البناء يؤثر على بحيرة مشهورة في تونس هي بحيرة أشكل، ويغيّر ملوحة مائها فيضيع دورها كمحمية عالمية تمرّ منها شتاء كلّ سنة في أيام معدودة مجموعات من الطيور النادرة.

وأكد لي أنّ الرأى العام في ألمانيا يسلط على الحكومة ضغوطاً قوية للتداخل لدينا حتى لا نفسد خصائص هذه البحيرة.

وإذا أردنا الإبقاء على القرض، فإنّه يتعيّن علينا إعادة النّظر في الدراسات الفنيّة لهذا السدّ وتغيير معطياتها حتى لا تضرّ بالبحيرة وتبقى الطيور التي تأتيها من جنوب إفريقيا تؤمّها بسلام.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أتعرض فيها على ملفّ مثل هذا، دافعه حماية البيئة وأتعرف على أهميّة البيئة في العالم الحديث، وأكتشف حساسيّة الرأى العام للأخطار التي تهدّد البيئة.

(2) بدأت قضايا البيئة منذ آخر القرن الماضي تستقطب اهتمام الرأى العام في العالم كله تتجدّد لها النّخب والجماهير وتوليها الحكومات منزلة متميّزة.

أصبحت قضايا مصيريّة تندد بالأخطار التي تهدّد البيئة والتي لا تهدّد جودة الحياة فحسب، بل تهدّد الحياة كلّها، لا تعني بلداً معيّناً، بل تهتمّ العالم كله، ولا تعني كائناً معلوماً، بل تهتمّ كلّ الكائنات، وهي من أكبر التحديات التي تواجهها الإنسانيّة اليوم.

3) حدّد مؤتمر ستوكهولم البيئة بأنها: "رصيد الموارد الماديّة والاجتماعيّة المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلّعاته". الأخطار التي تهدّدها نوعان بعضها يتكوّن من كوارث طبيعيّة كالزلازل والعواصف والفيضانات لا حول ولا قوّة للإنسان أمامها، تستلزم من جهة الدّعاء والصّبر، ومن جهة ثانية التصدّي لها بما يتوفّر من إمكانيات وبالاستتجاد بالتضامن الدّولي للتخفيف من وطأتها.

ومن أمثال ذلك ما يحدث الآن في باكستان الشّقيقة من فيضانات لم تعرفها سابقاً، وهي من أشدّ الأضرار في تاريخها مات من جرّائها آلاف من المواطنين وتضرّر منها قرابة 15 مليون نسمة، وخلفت أمراضاً فتاكة ستواجهها البلاد لسنوات عديدة.

وبعضها الآخر يتكوّن من كوارث كان الإنسان سببها. كانبعاث الغازات الدّفيئة التي ترفع الحرارة الكونيّة بنحو 0,2 درجة مئويّة كلّ عشر سنوات ممّا يزيد في حدّة موجات الحرّ ويتسبّب في الجفاف والسيول العارمة ويضرّ بالزّراعة والغابات ويؤثر على الموارد المائيّة ويرفع من مستوى البحار والمحيطات ويغمر مناطق ساحليّة شاسعة.

ومن الكوارث التي يتسبّب فيها الإنسان التلوّث البيئي والصّناعي وتلوّث البحار وتسربّ النّفط فيها من جرّاء حقولها تحت الماء ومن جرّاء البواخر النّاقلة التّجاريّة التي تعبرها.

ومن الكوارث الإنسانيّة النّفايات المنزليّة والصناعيّة الخطرة والسّامة والتي يذهب ضحيّتها البلاد الضّعيفة والفقيرة.

لم يأخذ الإنسان لهذه الكوارث الاحتياطات اللازمة ولم يتجنب السلوكيّات المضرة التي تؤدي لها وهو اليوم يتلجأ لمعالجتها والتصدّي لها. تحدّث عنها رئيس تونس زين العابدين بن علي فقال:

"لقد أدركت المجموعة الدوليّة فداحة الخطر الذي تمثله التغيّرات المناخية وجسامة التهديدات التي تشكلها بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء.

ولئن كانت القارة الأفريقيّة لا تتحمّل أيّة مسؤوليّة عن استفحال هذه الظاهرة، باعتبارها أقلّ مناطق العالم تسبباً في الانبعاثات الغازية الملوثة، فإنها مع ذلك مرشحة لأن تكون الأكثر تضرراً منها. كما أنّ انجراف التربة، وتقلص الغابات، وارتفاع مستوى البحر، وشحّ الموارد المائية، تشكل هي الأخرى أخطاراً إضافيّة تهدّد التنمية المستدامة في بلداننا.

وإنّ وعينا المشترك بخطورة التغيّرات المناخية على مصير الإنسانية يدعونا أكثر من أيّ وقت مضى، إلى تكثيف العمل من أجل المحافظة على الغابات، وإعادة التشجير، وإيقاف التصحّر وانجراف التربة، والحدّ من الانبعاثات المتسببة في الاحتباس الحراري وتشجيع إنتاج الطاقات البديلة".

(4) أصبح المواطن اليوم واعياً لهذه الأخطار، متمسكاً بحقه الأساسي في محيط سليم خال من التلوّث، جميل يطيب العيش فيه متطلعاً إلى تنمية مستدامة تحميه من انعكاسات التغيّرات المناخية وتحافظ على المياه الصالحة والتربة الطيبة وتدعم التنوّع البيولوجي، فترفع في الغطاء الغابي والرّعوي وتوسّع في المساحات المشجرة، وتوقف زحف الصّحاري وينهض بالطاقات المتجدّدة.

تصدّت الحكومات والمؤسسات والأمم المتحدة للأخطار التي تهدّد البيئة، وأدركت أنّ رفع تحدياتها لا يكون إلّا بتظافر الجهود والتنسيق بينها.

وأخذت تعقد بدون انقطاع ندوات ومؤتمرات لتقييم خطورتها واتخاذ ما يلزم من خطط وبرامج وإجراءات لمواجهةتها.

(5) التأم مؤتمر عالمي أوّل هو قمة الأرض لحماية البيئة ولدفع التنمية المستدامة سنة 1972م في ستوكهولم بدعوة من جمعيّة الأمم المتحدة.

بوأ هذا المؤتمر قضايا البيئة مكانة عالميّة ووضع خطة لمقاومة التلوّث وبعث "برنامج الأمم المتحدة للبيئة".

6) وتبعت هذا المؤتمر الأول مؤتمرات أخرى واحد كل عشر سنوات.
انعقد المؤتمر الموالي، هو قمة الأرض الثانية سنة 1982م في نيروبي،
دون الوصول إلى نتائج معتبرة، سبب ذلك انعكاسات الحرب الباردة، وعدم
اكثرات الولايات المتحدة التي كان يرأسها إذاك "رونالد ريجان".

7) وسعيًا وراء معرفة علمية مجردة للتغيرات المناخية في العالم أنشأ
"برنامج الأمم المتحدة للبيئة" الذي تكوّن في ستوكهولم والمنظمة العالمية
للرصد الجوي هيكلًا قاراً سمّاه "مجموعة الخبراء الحكوميين لمتابعة تطوّر
المناخ".

أكدت هذه المجموعة أنّ انتشار الغازات الدفينة سببه النشاط البشري
والنّهضة الصناعيّة.

وتحظى هذه المجموعة بمصداقية كبيرة وتلقى التقارير التي تصدرها كل
خمس سنوات تقريباً صدى حسناً في العالم.

8) وفي جوان 1992م انعقدت قمة الأرض الثالثة في ريو دي جانيرو
وحدّدت حقوق ومسؤوليات الدول في ميدان البيئة، ودعت إلى تنمية مستدامة
تحمي التنوّع البيولوجي وتنهض بالغابات وتقاوم التصحّر، وتزيل النفايات
السامة وأسفرت قمة ريو دي جانيرو على اتفاق إطاري للأمم المتحدة حول
التغيرات المناخية الخطيرة.

أصبحت الحكومات والتنظيمات المدنيّة بمقتضاه تجتمع كل سنة ابتداءً
من سنة 1995م للنظر في أثارها ولوضع برامج للسيطرة عليها. وللحدّ من
انتشار الغازات الدفينة وبدأت تدرس معاهدة في الغرض تمّت المصادقة عليها
في أكتوبر 1997م في كيوتو Kyoto على أن يبدأ تنفيذ بنودها في فيفري
2005م.

وأصبحت تجتمع في إطارها قمة كل سنة للمتابعة والدفع وحدّدت هذه
القمة لكل دولة تخفيض مقدار من الغازات تلتزم باحترامه.

صادقت 183 دولة على هذه المعاهدة وبقيت الولايات المتحدة متلكأة والصين مترددة.

(9) في نطاق الاجتماعات الدورية التي التأمّت في إطار اتفاق "كيوتو" Kyoto، انعقد الاجتماع الخامس عشر في كوبنهاجن، وأقرّ بوجوب تحديد ارتفاع الحرارة إلى درجتين في سلم CELSIUS ولكنه لم يأخذ قرارات ملزمة، ولم يتوصّل إلى اتفاق واضح. وأمّا الولايات المتحدة والصين وهما أكثر البلاد الملوثة، فإنهما تفاوضتا لوحدهما وحاولتا في محادثات جانبية إلى إبرام اتفاق بينهما.

(10) وفي 2002م اجتمعت القمة الرابعة للأرض في جوهانسبورغ وشجعت الشراكة بين الشمال والجنوب. حضر هذه القمة ما يقارب مائة رئيس دولة وما يزيد عن أربعين ألف نائب، وقد تعدّ أكثر تظاهرة للأمم المتحدة في ميدان البيئة.

نظرت هذه القمة في شؤون الماء وتطورّ مواردّه واستهلاكه وتطهيره وتوزيعه، ونظرت في الطاقة وفي الطاقات البديلة كالطاقة الشمسية وطاقة الرياح.

وتأسفت لتراجع الإنتاج الفلاحي وفساد التربة. وألحّت على المحافظة على التنوع البيولوجي وبدأت تهتمّ بشؤون الصحة.

ويستعدّ العالم اليوم إلى عقد القمة الخامسة في ريو دي جانيرو سنة 2012م ونأمل أن تكون مساهمة البلاد الإسلامية فيها قوية وأن تجد قراراتنا عندها صدى.

(11) إنّ الاعتناء بقضايا البيئة يزداد، والإحاطة بها تتعمّق عاماً بعد عام ولكن الأخطار المهددة للبيئة لم تتقلّص، والخلافات لوضع الخطط وتطبيقها لم تنته. والمصالح الأنية تغلب المصالح البعيدة المدى، والاعتبارات القطرية الضيقة تنتصر على الاعتبارات العالمية.

وللنجاح في مواجهة هذه الأوضاع بحظوظ في النجاح أوفر لا بد من الرجوع إلى دوافع جديدة وتشجيعات أخرى ومرجعيات قوية. (12) نجد ذلك في الإسلام، فهو مرجعية قوية فيه دوافع جديدة وتشجيعات أخرى لحماية البيئة ورفع تحدياتها.

فالمحيط الذي نشأ فيه الإسلام بعيد عن التلوث، قريب من الطبيعة. لم يفقده الإنسان في مكة توازنه وسلامته ونقاوته، والرّسالة التي أتى بها الإسلام تجعل من الإنسان محور الكون وخليفة الله في الأرض، وهو موكل عليها، يحترم موارده لا يدمرها، يحافظ على الماء لا يلوّثه، يحمي التربة فيشجّرّها، لا يعبت بالحيوان ولا يسيء إليه، فهو كائن حي خلقه الله.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قتل عصفوراً عبثاً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول يا ربّ إنّ فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة»، والآيات التي توصي الإنسان بحماية البيئة متعدّدة، وقد ورد في سورة القصص آية كريمة تقول: [وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] [القصص: 77]. وفي سورة الأعراف: [وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا] [الأعراف: 56]، وفي سورة القصص: [وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ].

أيتها السيدات، أيّها السادة،

أكتفي بهذا القدر القليل عند الحديث عن المقاربة الإسلامية للبيئة، فإنّ من بين الحاضرين علماء أجلاء وأساتذة كبار هم أقدر منّي على بيان أسسها ومركزاتها ومحتواها وأبعادها الخاصّة، وإني بهذه المداخلة لم أسع غير تقديم عام لأهميّة البيئة في العصر الحديث وبيان مدى اهتمام العالم بها والإشارة إلى الخطط التي وضعتها الدول والمؤسسات العالميّة والتنظيمات المدنيّة للحفاظ عليها، ولدرء الأخطار عنها ولرفع التحديات التي تواجه الإنسان من جرّائها.

والله وليّ التوفيق والسلام عليكم.